مفتتح

الوَحْيُ كَمَرجِعيّةٍ مَعرِفيّةٍ مُوصِلةٍ لِلكَمال

رئيس التحرير

د.محمد محمود مرتضى

خلقَ اللهُ الإنسانَ، وزَوَّدَه بمَجموعةٍ من الطَّاقاتِ والأدوات، وتعهَّدَهُ بأنواعِ الهداياتِ، ليَستعينَ بها على عِمارةِ الأرضِ، بما يَنسجِمُ مع خلافتِه فيها، وبما يُؤمِّنُ له ما يَحتاجُه في سَيرِه التَّكامُليِّ الذي خُلق لأجلِه. ومن ضِمنِ هذه الهداياتِ كانَت الهدايةُ الوَحيانيّةُ، المنبثقةُ من الحَقِّ، والمُتعاليةُ بطبيعتِها على الخطأ والانحرافِ.

إنَّها الهدايةُ التي لا يُعكِّرُها الشَّكُّ، ولا تُخالطُها الأوهام، ولا يتسرَّبُ إلى محتواها شيءٌ من الخطأ، وذلك يَعود لأمرين: أوَّلُهما أنَّها من الله تعالى، والثّاني أنَّ اللُّطفَ الإلهيَّ يَقتضي تزويدَ الإنسانِ بمعرفةٍ ثابتةٍ يَركنُ إليها، ويطمئنُّ إلى صدقيّتِها، ويتلقّاها عقلُه ووجدانُه بالاقتناعِ والرِّضا.

إنَّها الهدايةُ التي بها عرفَ الإنسانُ ربَّهُ، وعنها صدرَ في مَعاشِه وعِبادتِه، وإليها توجَّهَ في فِكرِه واجتهادِه، ولها أخلصَ في نيّتِه وأعمالِه. إنَّها الهدايةُ التي لا يَعلوها هُدًى، والنُّورُ الذي ما بعدَهُ نورٌ، والحِكمةُ التي لا يُخمِدُ جِدَّتَها تَطاوُلُ الزَّمانِ وتَعاقُبُ الأيّامِ.

باقيةٌ مُزهرةٌ في رياضِ العقولِ والنُّفوسِ، ثابتةٌ شامخةٌ في قِمَمِ الأدلّةِ والبَراهين، تتجاذَبُ سِحرَها الكواكبُ والنُّجوم، وتتلطَّفُ لمُبتغيها لتكونَ كالثَّمرةِ في الغصنِ القريب، وكالوردةِ التي تدعو بنضارتِها وعِطرِها أصحابَ الذَّوقِ الرَّفيع، وأربابَ القلوبِ الصافية، التي تَعالَت على الجَدَلِ والشَّحناءِ، وتوجَّهَت بآياتِ الكونِ الفَسيح إلى الخالقِ العظيم، دون التفاتٍ إلى ما سواه.

إنَّها الهدايةُ الجامعةُ للخير والفَضائلِ، المصبوغةُ بالصِّدقِ والكمال، التي لو تسرَّبَ إليها احتمالُ الخطأ لاحتاجَ الإنسانُ إلى معرفة أعلى منها، وهيهات أن يتسرَّب إليها الخَطأ، ومصدرُها هو الله تعالى، وحاملُها روحُ القُدس، ومُتلقِّيها النبيُّ المَعصوم، الصّادقُ الأمين.

وفي هذا السِّياقِ تُؤكِّدُ النُّصوصُ الدِّينيةُ، والبَراهينُ العقليّةُ أنَّ الأنبياءَ والرُّسُلَ جميعًا، وعلى رأسهم خاتَمُهم وأفضلُهم نبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ، مَعصومونَ عن كلِّ ما يتعارضُ مع مُهمّةِ الرِّسالة والإبلاغ والهداية، فلا يَصدرُ عنهُم خَطَأٌ، أو نسيانٌ، أو تحريفٌ، أو غَفلةٌ، أو كتمان. قال -عز وجل-: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾[الحج:75].. ويقول -تعالى-: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[النجم: 1-5].

على أنَّ الوَحيَ لا يُلغي وظيفةَ العقلِ؛ ولا يَغُضُّ من قيمتِه، بلِ اعتبرَتْهُ النُّصوصُ الدِّينيةُ رسولاً من الدّاخل، جعلَه الله -تعالى- مناطَ التَّكليفِ.. وقد توسَّعَ القرآنُ كثيراً في الحديث الإيجابيِّ عن العقل وضَرورتِه للإيمان، فما من سُورةٍ في القرآن إلا وفيها حثٌّ ودعوةٌ صريحةٌ إلى استعمال العقلِ، وتَفعيل دَورِه ووظيفته، وضرورة إعمالِ التَّفكير في النَّفس والآفاقِ للوصولِ إلى الحقيقةِ الكُبرى وتَرسيخِها في العقول، والدَّعوة إلى التفكُّر والتأمُّل في كلِّ مواقع الحياةِ والوجودِ، حتَّى يصلَ الإنسانُ المُتعقِّلُ إلى الإيمانِ القطعيِّ واليَقينيِّ بالله -تعالى-، والإقرارِ بوحدانيتِه، وأنَّه لا شريكَ له، وأنَّ كلَّ ما جاءَنا عن طريق الرُّسُل والأنبياء هو عدلٌ وحقٌّ وصِدقٌ؛ حتى إنَّه بالإمكانِ اعتبارُ الدَّليل على ضرورة الوَحي وحاجةِ الإنسانِ إليه هو من مُخرجاتِ الدَّليلِ العقليِّ بناءً على قاعدةِ اللُّطفِ الإلهيّ.

ومهما يكنْ من أمرٍ، فإنَّ الوحيَ يَرتبطُ بأمرَينِ:

الأوّلُ: النَّفسُ النَّبويّةُ وتميُّزُها عن باقي الأنفُسِ بقُدرتِها على تلقِّي الوحي. على أنَّ تعلُّقَ الوحي بالنَّفس النَّبويّة، ودورَ هذه النَّفسِ، ممّا لم يُنكِرْهُ العلماءُ المحتَكمونَ إلى بَديهاتِ العقولِ ومُسلَّماتِها، إلا أنَّ البعضَ قد ذهبَ بعيدًا إلى حدِّ الشَّطح فاعتبرَ الوحيَ من إنتاجِ النَّفس الإنسانية.

والحقُّ أنَّه لا يُمكِنُ إنكارُ فاعليّة النَّفسِ النَّبويّة، وتميُّزِها عن باقي أنفُسِ البشر، وإلا لَما كانَ للاجتباء والاصطفاء أيُّ معنًى، لكنَّ تَعالي النَّفسِ النَّبويّة وتميُّزَها يَظهران في قابليّتها العُظمى لتلقِّي الوَحي، لا في أنَّها مُنتجةٌ له، ولو كان الوحيُ إنتاجًا نبويًّا لَما كان ثمّةَ فرقٌ بين القرآن والسُّنّة النَّبويّة. على أنَّ الوحيَ أعمُّ من الكتاب المُنزَّل، فليسَ كلُّ ما يُوحى به يَدخل في الكتاب، إلا ما نصَّ عليه الوحيُ بأنَّه من الكتاب.

الثاني: اللُّطفُ الإلهيُّ. فقد يَبدو تناوُلُ النَّصّ القرآنيِّ بأدوات تحليلِ النُّصوصِ الأدبيّة مُمارَسةً أكاديميّةً اعتياديّةً، إن لم تُضِفْ علمًا فهي لا تَنتقصُ من القرآن، لكنَّ أصلَ تناوُلِ النصِّ القرآنيِّ بالتَّحليل -من خلال استخدام مناهج مَعرفيّة غَربيّة وتَطبيق آليات التَّأويليّة (الهرمينوطيقا)- يَفتحُ بابًا لتَثبيت فرضيّات تتعارَضُ مع أُسس العقيدة الإسلامية؛ فعصمةُ النَّصِّ القرآنيِّ من التَّحريف، وكونه تِبيانًا لكلِّ شيء، وحاويًا على معارف مُطلَقة وأبدية، هي أُسسٌ واعتقاداتٌ لا تُثبتُها آياتُ القرآنُ وحسب، ولكنَّها نَتائجُ بَديهيّةٌ للاعتقاد بقاعدة اللُّطف الإلهيِّ، التي كتبَ اللهُ على نفسه بمُقتضاها أن يُهيِّئَ أسبابًا للهداية ويُرسِلَ الرُّسُلَ، فلا يُمكِنُ أن تَبقى عقولُ البشرِ هائمةً تَتقاذفُها الأهواءُ والنِّسبيّةُ العُرفيّة، بلا أيّة مَرجعيّة موثوقة يَعود إليها المُختلفون.

إنَّ كلَّ المشاريعِ الفكريّة التي أرادَت نقضَ مبادئِ الحُكومة الإسلاميّة، أو نقضَ الإمامة، أو تَقييدَ إطلاق الأخلاق، أو نفيَ عالَم ما بعدَ الطَّبيعة، اصطدمَت جميعُها بهذه المَرجعيّة المَعرفيّة الثّابتة في النِّظام المَعرفيِّ الإسلامي (القرآن الكريم)، فتارةً حاولَت سلبَ فاعليّة القرآن من خلال القول بأنَّه عبارةٌ عن اجتهادات نسبيّة من النبيِّ، رهينة بزمان ومكان مُحدودَيْن، وتارةً قسَّمَتْه إلى مكيٍّ ومدنيٍّ، أو ثابتٍ ومُتحرِّكٍ، فجَميعُ هذه المُحاولات جاءت من أجل الهُروب ممّا تَفرضُه هذه المَنظومة الإسلاميّة، ممّا لا يُفيدُ نَقضُه إلا من الأساس.

وعلى أيِّ حال، فقد جاء هذا العددُ من مجلة «اعتقاد»، ليَطرَحَ القَضايا المُعاصرة، ويَردَّ على الشُّبهات المُثارة حول الوحي، كما يَتناولُ أبعادَ هذا التَّواصُلِ السَّماويِّ من زوايا فلسفيّة ومَعرفيّة مُتنوِّعة، وذلك في محاولةٍ جدّيةٍ لتَقديم فهمٍ شاملٍ لمَفهومِ الوحي كوَسيلةٍ للإرشادِ والتَّوجيه.

ومع تطوُّرِ الزَّمنِ وظهورِ التَّفسيرات المُعاصرة باتَ من الضَّروريِّ إعادةُ البحثِ في هذا

المَفهوم الجوهريِّ، لاستكشاف طبيعته وخصائصِه وتأثيراتِه على الإنسان والمُجتمع؛ حيثُ يَشهدُ عصرُنا اليومَ تساؤلاتٍ عَميقةً تتعلَّقُ بطبيعة الوَحي، ومدى تأثيرِ التَّجارِبِ الذّاتيّةِ والثَّقافية على هذا الاتِّصال الإلهيِّ، كما تَبرزُ محاولاتٌ لفَهمِه في إطارٍ فلسفيٍّ ومعرفيٍّ حديث.

وفي هذا السِّياق، نُقدِّمُ مقالةَ «الوحيُ الإلهيُّ وجدليّةُ التَّواصل بين المُطلَق والمَحدود»، التي تتناوَلُ طبيعةَ العلاقةِ بينَ الله والإنسان؛ حيثُ يُلقي المقالُ الضَّوءَ على كيفيّةِ انتقالِ المَعرفةِ مِنَ الله، المُطلَقِ اللامُتناهي، إلى الإنسان، المَحدودِ المُتناهي، ويَتناولُ التَّساؤُلاتِ الفلسفيّةَ التي تتعلَّقُ بكيفيّةِ نزولِ الوَحي، وكيفيّة تمكُّن الإنسان من استيعاب رسالتِه، عبرَ مُناقشة هذا التَّفاعُلِ بينَ الخالقِ والمَخلوق، حيث تَسعى المقالةُ لتَوضيح العلاقةِ التي تجمعُ بين المُطلَقِ والمَحدودِ، الكاملِ والنّاقصِ، وكيفَ يُشكِّلُ الوَحيُ حلقةَ الوَصلِ التي تَنقل الحكمةَ والمعرفةَ من الله إلى الإنسان؟

..وتَتناولُ مقالةُ «نقد مباني نظرية الوَحي لدى سروش» موضوعَ الوحي من مَنظورٍ مَعرفيٍّ مُعاصِر؛ حيث تستعرضُ الرُّؤيةَ النَّقديةَ التي يُقدِّمُها الباحثان (د. عبد الحسين خسروبناه) و(محمد قمي) في تحليلِ آراءِ (عبد الكريم سروش) حولَ الوَحي، التي تأثَّرَت بالنَّظرياتِ الهرمنوطيقية واللُّغويّةِ الغربية.. حيث يَرى (سروش) أنَّ الوحيَ تجربةٌ ذاتيّةٌ للنَّبيِّ تحملُ بُعدَين: «المُصوَّر»، الذي يَظهَرُ في النَّصِّ القرآنيِّ و «غيرَ المُصوَّر»، الذي يمُثِّلُ التَّجربةَ الباطنيّةَ.. يَتناولُ المقالُ نَقدًا منهجيًّا لهذا الطَّرحِ، مُستعرضًا نقاطَ الضَّعفِ في نظريةِ (سروش)، مثلَ الإبهامِ في الطَّرح، والخلطِ بين المَواضيع، وادِّعاءاته التي تَفتقرُ للدَّليل. ويُوضِّحُ المقالُ أيضًا تأثيرَ النَّظريّاتِ الغربيّةِ على تَفسيرِ (سروش) للوَحي كنصٍّ لُغويٍّ خاضعٍ للتَّجربة الذّاتية، وكيفَ أثارَت هذه الآراءُ نقاشًا واسعًا بينَ العلماء.

كما يضمُّ العددُ مقالةَ «الشَّيطانِ والنبيِّ والوَحي: دراسة تَحليلية تَفكيكية»، التي تَطرَحُ سؤالاً حسّاسًا حول احتماليّةِ تدخُّلِ الشَّيطانِ في الوحي، وتعرضُ الفرقَ بين الوَحي الرَّحمانيِّ والوَحي الشَّيطانيِّ.. ويَعتمدُ المقالُ على الأدلَّة القُرآنيّةِ التي تُؤكِّدُ نقاءَ الوَحي الإلهيِّ، وحمايتَه من أيِّ تدخُّلٍ خارجيٍّ، ويُوضِّحُ أنَّ الوحيَ يمُثِّلُ مصدرًا للنَّقاءِ والمَعرفة، لا يتأثَّرُ بالقُوى الشَّيطانية، ولا يتعرَّضُ للتَّشويشِ والتَّشويه.. وهذه الدِّراسةُ تَفتحُ مجالاً للنِّقاشِ حولَ أهميّةِ التَّمييزِ بين وحي

الله النَّقيِّ ووَساوسِ الشَّيطان، وتُسلِّطُ الضَّوءَ على معنى الوَحي في العقيدة الإسلامية باعتبارِه أداةً للهُدى، لا تَشوبُها شوائبُ أو تدخُّلاتٌ غيرُ إلهية..

وتُقدِّمُ مقالةُ «إدراك الوَحي فوق الحواسِّ والعقل» دراسةً تَحليليّةً لطبيعةِ الوَحي كنَوعٍ من الإدراكِ الفَوقيِّ، وتُوضِّحُ أنَّ الوحيَ ليس إدراكًا بشريًّا خاضعًا للعقل أو الحسِّ، بل هو نوعٌ من الإدراك الفائقِ الذي يُمنَح للنبيِّ مباشرةً من الله.. وتَتناولُ المَقالةُ الاختلافاتِ بينَ الوَحي والإلهامِ والكَشف، مُوضِّحةً كيفَ يَمنحُ الوحيُ للنبيِّ معرفةً لا يُمكِنُ للبشرِ العاديِّينَ الوصولُ إليها عبرَ الطُّرُق الإدراكية التَّقليدية. هذه الدِّراسةُ تُحاول إبرازَ الخصائصِ الفَريدةِ للوَحي وكيفَ يُشكِّلُ هذا الإدراكُ البشريُّ المَحدودُ وسيلةً لنقلِ المعرفةِ المُتعالية.

كما يتطرَّقُ العددُ إلى تحديد طبيعةِ الوَحي، والفرق بينَه وبينَ كلامِ البَشرِ، من خلالِ مقالةِ «القرآن الكريم: وحي إلهي أم تأليف بشري؟»، التي تَتناول الشُّبهاتِ التي تُثارُ حولَ مصدر القرآن الكريم، وتَدحَضُ مزاعمَ المُستشرقينَ التي تدَّعي وتَزعُمُ أنَّ القرآنَ نتاجٌ بشريٌّ.. يَستعرضُ المقالُ الدَّلائلَ اللُّغويّةَ والمَعرفيّةَ التي تُثبتُ أنَّ القرآنَ وحيٌ إلهيٌّ يتَّسمُ بالبلاغة المُتعالية، بعيدًا عن التأثيراتِ البَشريّة.. وهذه المقالةُ تَهدفُ إلى التأكيد على أنَّ القرآنَ هو كلمةُ الله النَّقيّةُ، التي تلقّاها ونقَلَها النبيُّ دونَ تدخُّل أو تَعديل.

وتَحظى رؤيةُ (السيِّد محمد باقر الحكيم) حولَ الوحي بمَقالةٍ تتناول شُبهةَ «الوحي النَّفسي»، والتي قدَّمَها بعضُ المُستشرقينَ، مُحاولينَ تَصويرَ الوحي كتَجربةٍ نفسيّةٍ للنَّبيِّ.. ويُوضِّحُ المقالُ أنَّ (السيِّدَ الحكيمَ) يَتناولُ الوحيَ من زاويةٍ عَقلانيّةٍ ورُوحيّةٍ عَميقة، مُدافعًا عن مفهوم الوَحي باعتبارِه اتِّصالاً إلهيًّا مَوضوعيًّا، مُستقلاً عن الانعكاسات الذّاتية للنبيِّ، وهذا يُؤكِّدُ أنَّ الوحيَ هو اتِّصالٌ حقيقيٌّ يَتجاوَزُ أيَّ تجربةٍ نفسيّة.

نأمُلُ أن يكون هذا العددُ من مجلة «اعتقاد» دعوةً للمَزيد من البحثِ والتَّحليلِ حولَ موضوعِ الوحي، ونَدعو المُؤسَّساتِ الأكاديميّةَ والجامعاتِ والحوزات العلميّة إلى تكثيفِ الدِّراساتِ في هذا المجال، نظرًا لأهميّتِه في فَهمِ العَقيدةِ الإسلاميّة، والردِّ على الشُّبهاتِ المُثارة حولَ أُسُسها، ومنها الوحيُ.

فالوَحيُ هو العمودُ الفقريُّ الذي تَقوم عليه عقيدةُ الإسلام، ودراستُه بعِنايةٍ تَعني فهمًا أعمَقَ للرِّسالةِ السَّماويّةِ وتَفاعُلِها مع الإنسانِ عبرَ العصور..

كما نَرجو أخيراً أن يُشكِّلَ هذا العددُ إضافةً مَعرفيّةً نوعيّةً تُثري عقلَ القارئ، وتَدفعُه إلى التأمُّلِ في هذه العَلاقة المُقدَّسةِ بينَ الخالقِ والمَخلوق، التي تتجلّى في رسالة الوَحي العَظيم.